



في سبيل العربية كتاب البخل

للأستاذ محمود مصطفى

— ٣ —

يعلم الله أننا ما نقصد بنقدنا هذا تجميع الأستاذين الناضلين .
والعالين الجليين العوامري بك ، والجارم بك . فإن حقيما علينا
مرعى ، ومقامهما لدينا كبير . وإنما أشفقتنا على العربية التي وقفنا
حياتنا على خدمتها أن يشيع في طبقات أهلها ما اعتقدناه بجانب
للصواب ومتجانفاً من الحقيقة التي ننسدها ونشدها معنا صاحباً
العزة الشارحان للكتاب

أشفقتنا على الحقيقة أن يضل الناس في أمرها ، وقد شاع
الكتاب وذاع وانتشر في شرق وغرب ، وتناوله كل أديب واحتواه
قطر كل طالب . فأحبينا أن يصحح كل قارى نمخته ليقرأه
بمد ذلك سليماً وليجعله إلى الصواب محجة لا أمت فيها ولا عوج
ودليلنا على حسن النية أننا لا نعرض إلا على خطأ لا سبيل
إلى التماس الصواب فيه ، فأما الذي يحتل الصواب ولو بوجه
من الوجوه ، وأما الخطأ الذي لا يوجب ارتباكاً في الفهم ،
فقد تركنا كل ذلك اتكالا على فهم القارى واجتناباً لأن نهم
بالاستكثار من عد التهم والرى بها جزافاً

في ص ٣٣ في رسالة سهل بن هارون التي يخاطب بها
بني عمه يقول :

« وما أردنا بما قلنا إلا هدايتكم وتقويمكم ، وإلا إصلاح
فسادكم وإبقاء النعمة عليكم . ولئن أخطأنا سبيل إرشادكم فإنا
أخطأنا سبيل حسن النية فيما بيننا وبينكم »

والكلام واضح لا يحتاج إلى تفسير ، ولكن حضرتي
الشارحين بأبيان إلا شرح ما لا يحتاج إلى شرح فهما يقولان :

« قوله (فيما بيننا وبينكم) . (في) هنا للسببية أى بسبب
ما بيننا وبينكم من صلة القرابة أى إن عدم خطئنا سبيل حسن
النية إنما هو بسبب ما بيننا وبينكم من صلة »

وهذا كلام ظاهر التكلف : فيه تكلف في اللفظ بإخراج
لفظة (في) عن معناها الأصلي إلى معنى السببية ، وفيه تجوز
في معنى الكلام وعدم إجراء له على وجهه المتبادر . وإنما المعنى
المفهوم الذي تدل عليه الألفاظ بوضعها الحقيقي الأول هو : إننا
لم تكن غير حسنى النية في الأمر الذي نحدثكم فيه وهو تسوية
الرأى في البخل وعده حراماً وحيطه

هذا هو الأمر الذى بينهم وبينه وهو الذى بنى عليه رسالته من
أوطأ إلى آخرها . أفرأيت أيها القارى أننا لم تكن بحاجة إلى جعل
في السببية وتفسير ما بينه وبينهم بالقرابة وهى لم يجر لها ذكر في الرسالة ؟
في ص ٣٤ بقول سهل : « إن من أعظم الشقوة وأبعد من
السعادة أن لا يزال يتذكر زلل المعلمين »

وفي الشرح يرتكب الشارحان خطأ ظاهراً يجملهما أن في قوله
« أن لا يزال » مخففة من الثقيلة واسمها ضمير الشأن وجملة
لا يزال خبر لها . وقد تبع ذلك أن ضبط الفعل يزال بالضم لأنه
في نظرها لم يسبق بناصب ولا جازم ، كما تبع ذلك أيضاً أن فصل
أن من لا في الرسم لأنها حين لا تكون ناصبة تفصل من حرف النفي
ولسنا بحاجة إلى الإطالة في شرح هذا المقام وبيان ضرورة
جمل أن مصدرية ناصبة للفعل ، لأن شرط جعلها مخففة من الثقيلة
أن تكون مسبوقه بيقين أو ظن ، ولم يسبقها هنا شيء من ذلك
وهذه قصة صغيرة وردت ضمن رسالة سهل نوزدها لحسنها
في ذاتها أولاً ، ولندكر بعدها تليقاً للشارحين على جملة منها
أعربها إعراباً غريباً ثم شرحها شرحاً مضطرباً ينقض آخره أوله
وهذه هي القصة ص ٤٦

« حدث أحمد بن رشيد قال : كنت عند شيخ من أهل مرو
وصبى له صنير يلبس بين يديه فقلت ، إما عابثاً وإما ممتحناً : أطمعنى
من خبزكم . قال : لا تريد ، هو مر ! فقلت : فاسقنى من مائكم . قال :

لها هذا الخيال الذي تصورا به أن هذه الأسرة قد استننت بماء النخالة عن كل طعام وشراب فلم تمد بعد بمحاجة إلى الدقيق؟ إن أحدآ لا يعقل هذا!! ولكن الأمر أيسر مما عسرا وأبسط مما ركبا، وذلك أن الرجل لما رأى في ماء النخالة غداء وشفاء عرض له أن يستفيد من ذلك، فتقدم إلى امرأته بأن تطبخ للخيال كل غداة نخالة ليكون في تناول حسائها غنية عن أكلة من أكالات اليوم، ثم هو يوجهها إلى تديره المحكم بقوله «فتبينين إذا الجميع بمثل الثمن الأول» يريد أنه إذا تجمع عندها مقدار صالح من مطبوخ النخالة بعد بحقيقته باعته بمثل الثمن الذي اشترته به لأن النخالة لم تتغير حالها بعد الطبخ عما كانت عليه قبله

فقد بان مقدار التسلف في هذا الشرح بتصور القمح وطحنه وإبقاء الدقيق والاستثناء بالنخالة عن كل طعام آخر وأن أصحاب هذا التدبير قد وفقوا إلى أن يبشروا حياتهم كلها بفرق ما بين النخالة جديدة ومطبوخة

فيا لله أيها الشارحان إذا كنتما جادين في هذا الخيال وقد اقتنعتما به، فلم اشترى الرجل وامرأته القمح وتكلفنا طحنه ثم بيع الدقيق الذي بقي بحاله والنخالة بمد طبخها؟

أما كان يكفيهما أن يشتريا النخالة وحدها ليأخذنا فائدتها ثم يبيعاها مسلوبة الفائدة فلا يكونان بحاجة إلى كل هذا التعب؟ ولكن تكلف الشارحين ونسفهما قد جعلهما يكلفان الرجل والمرأة كل هذه المشقة في أمر معاشهما (للكلام بنفيا) محمد مصطفي

عند شما

بيع عظيم لبضائع الصيف

يوم السبت أول ابريل والأيام التالية

تعرض جميع الواردات الحديثة

بأثمان معقولة

لا تريد، هو مال؛ قلت: هات من كذا وكذا قال: لا تزيد، هو كذا وكذا، إلى أن عدت أصنافا كثيرة. كل ذلك يعننيه وينغضه إلى، فضحك أبوه وقال: ما ذنبتنا؟ هذا من علمه ماتسمع. يعني أن البخل طبع فيهم وفي أعراقهم وطينتهم»

أما الجملة التي تؤاخذها على إعرابها وشرحها فهي «هذا من علمه ما تسمع» فقد أعرابها هكذا: هذا مبتدأ و (من علمه) جار ومجرور خبره وما بدل من ذا في هذا «وهذا الإعراب خطأ لا يبرره أي تمحك مما اعتاد العربون أن يلبثوا إليه، لأن الإعراب فرع المعنى كما يقولون

فلننظر قبل في المعنى الذي فهمه الشارحان من الجملة. قال: «أي هذا الذي تسمعه ناشئ من علمه ولم يلقنه بل هو من سجيته» وهذا كلام متناقض، كيف يكون الذي تسمعه ناشئا من علمه ثم يكون لم يلمه ولم يلقنه؟ وهل العلم إلا بالتعليم، فكأنهما قالا: تعلمه ولم يتعلمه فيكونان قد أثبتنا شيئا ثم نفياه في حال واحدة

إنما المراد لقائل الكلام هو أن هذا الذي بدا من كلام الصبي لم يصل إليه من طريق التعليم ولا التلقين وإنما هو وحى الطبع وإرشاد السليقة؛ وإذا كان كذلك فهو غير داخل في باب التعليم وإنما هو إلهام وغريزة مركبة في النفس. وحضرنا الشارحين أولى منا بفهم الفرق بين الغريزة والكسب لأن هذان مباحث علم النفس الذي طلباه في أوربا وبه امتازا على إخوانهما ونالا مناصبهما العالية

ومن أجل ذلك وجب أن تقرأ الجملة هكذا: «هذا من علمه ما تسمع» ويكون الكلام على الاستفهام الذي يراد به التني وتكون الإشارة في «هذا» إلى الصبي. والمعنى أن هذا الصبي لم يعلمه أحد ما صدر منه في جواب المتحن وإنما أجاب بما ركز في طبيعه وثبت في نفسه من طبيعة البخل المتوارثة في قومه

في ص ٦٦ في حديث بحيل عرف فضل ماء النخالة في شفاء السعال وفائدته في الغذاء، فقال لامرأته: «لم لا تطبخين لبيالنا في كل غداة نخالة فإن ماءها جلاء للصدر وقوتها غداء وعصمة، ثم بحققين بمد النخالة فتمود كما كانت فتبينين إذا الجميع بمثل الثمن الأول وتكون قد ربحتنا فضل ما بين الحالين»

ويعلق الشارحان على عبارة «فتبينين الجميع بمثل الثمن الأول» بقولها: «الجميع أي دقيق القمح ونخالته. أما الدقيق فلأنه باق على حاله، وأما النخالة فلأنها عادت بالجفاف كما كانت»

سبحان الله! ما رأيت تكلفا كتكلف هذا الشرح. من أين جاء الشارحان بالدقيق وهو لم رد له ذكر في الكلام؟ ومن أين